

العلامة عبد الحميد الفراهي ومنهجه في كتابه «مفردات القرآن»

إعداد الدكتور محمد مغربي
أستاذ محاضر «أ» بكلية العلوم الإسلامية
جامعة الجزائر 1 - بن يوسف بن خدة -

تَرْجِعُ صَلَاتِي بِكِتَابِ مُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ إِلَى الْمُرَاجِلِ الْأُولَى مِنْ إِعْدَادِي أُطْرُوحَةَ
الدكتوراه سنة 1328هـ / 2006م وأنا أحررُ إشكالية البحث المُسمَّى (مُعْجَمُ المعاني
القرآنية للألفاظ)، إذ إنِّي وقفتُ على جُمْلَةٍ اعتباراتٍ منهجيةٍ وتأصيلاتٍ فنيَّةٍ، فَوَفَّقْتُ
كتابَ العلامة اللُّغَوِيِّ المُفسِّرِ المُعلِّمِ الفراهيِّ الهنديِّ «مفردات القرآن» سَدِيدَ الحُكْمِ
قَوِيَّ التَّأْصِيلِ مَتِينِ التَّنْظِيرِ، غَزِيرَ الشَّوَاهِدِ فَرِيدَ الْقَلَائِدِ فِي إعْطَاءِ مَوْضُوعَاتِ
الْمُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ حَقَّهَا مِنَ الدَّرَاسَةِ وَالْبَحْثِ وَرَدَّهَا إِلَى أَصُولِ التَّفْسِيرِ وَقَوَاعِدِ
التَّأْوِيلِ الْجَارِيِ عَلَى حُسْنِ السَّبِيلِ؛ وَرَغِبْتُ حِينَئِذٍ أَنْ أُوفِّقَ إِلَى إِفْرَادِ كِتَابِهِ الْمَفْرَدَاتِ
بِدَرَاسَةٍ مِنْهَجِيَّةٍ وَمَا أَتَى عَلَى الْجَدِيدِ فِيهِ. وَأَرَانِي عَازِمًا فِي هَذِهِ الْوَرَقَاتِ، عَلَى تَقْدِيمِ
شِدْرَةٍ مِنَ التَّأْطِيرِ الْعِلْمِيِّ لِقَوَاعِدِهِ التَّفْسِيرِيَّةِ وَمُعَرِّفًا بِمَعَالِمِ مَأْخَذِهِ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ
نَظَرِيَّةً وَتَطْبِيقًا، فَوَضَعْتُ هَيْكَلًا دَرَاسِيًّا وَخِطَّةً مُحْكَمَةً لِنَتَأَوَّلِ أَهَمَّ الْعُنَاصِرِ فِي هَذَا
الْعَرَضِ، مُقْتَرِحًا الْآتِي:

- أهمية كتاب مفردات القرآن وحاجة البحث العلمي إلى أمثاله.
- التعريف بالإمام المعلم الفراهي.
- تأطير مباحث الكتاب ومحاوره الأساسية.
- انتخاب مجلِّ قواعِدِ الكتاب اللُّغَوِيَّةِ وَنَمَازِجِهَا مِنْ تَفْسِيرِ الْمَفْرَدَاتِ.

أولاً: أهمية الكتاب وحاجة البحث العلمي إلى أمثاله:

تتجلى أهمية الكتاب العلمية والفنية فيما يلي:

1/ تأصيل الكتابات المتخصصة في الدراسات المعجمية وخدمتها بأصول المفسرين والأصوليين واللغويين لمقاربة النظر والاستثمار الحي لدى البحوث الموسوعية. وكتاب كصنيع الإمام الفراهي هو مقدمة تأصيلية لفتح مجال العمل الموسوعي في مختلف المجالات التفسيرية اللغوية كالغريب والإشراك اللفظي والمتشابه اللفظي أو الوجوه والنظائر.

2/ انتخب هذا السفر جملاً من قواعد التفسير تُشكل لبنة مبنية لرسم منهج قويم في فن الغريب، ويُعبد بذلك طرُقاً تحصيلية للأداء الدلالي للمفردات؛ أي استجلاء المدلولات بوجه من وجوه المسالك الدقيقة في اللسان العربي الأصيل، مما يُفصح عن كثير من مجاري الاستعمال وتعدده، وأثر ذلك في كلام الصحابة وعُرفهم، وتفهم إطلاقاتهم في تناول تفسير الكلم القرآني، والاهتمام بتقديم شروحهم وأقوالهم على كتب اللغة.

3/ يُعتبر الكتاب إسهاماً تجديداً في تدريس مهارات التحصيل لدى مناهج التفسير اللغوي عموماً، بل يفرغ خصوصاً لعلاقة غريب القرآن بجُملة من الفنون الدقيقة كالوجوه والنظائر ومألف الاستعمال القرآني لمفرداته، والإشتقاق ومعاني الأوزان والصيغ الصرفية من خلال القواعد المعجمية المجرة في تحليل مفردات نصوص الوحي والنظم العام لخطابه.

ثانياً: التعريف بالإمام المعلم الفراهي

هو عبد الحميد⁽¹⁾ بن عبد الكريم بن قربان قنبر بن تاج علي، الأنصاري الفراهي الأعظمكدهي، المعروف بحميد الدين الفراهي، المشهور بلقب المعلم.

(1) الحسنی الطالبي، عبد الحي بن عبد العلي: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (نزهة

الخواطر وبهجة المسامع والنواظر) (8/ 1267).

ولد في جمادى الآخرة سنة ثمانين ومائتين وألف في قرية «فريه» من قرى مديرية «أعظم كده»، واشتغل بالعلم أياماً على المولوي محمد مهدي والعلامة شبلي النعماني، ثم سافر إلى لكهنؤ وأخذ عن العلامة عبد الحي ابن عبد الحليم وفضل الله بن نعمة الله، ثم سار إلى لاهور وتأدب على الشيخ فيض الحسن السهارنبوري، ثم تعلم الإنكليزية ونال الفضيلة في العلوم الغربية أيضاً وامتاز في الفلسفة الحديثة، ثم ولي التدريس بمدرسة الإسلام بكراتشي فدرس بها زمناً، ثم ولي بالمدرسة الكلية بعليكه ثم بإله آباد، ثم سافر إلى حيدر آباد وتصدر بدار العلوم وأقام بها مدة من الزمان.

ثم اعتزل عنها ولازم بيته ببلدة أعظم كده عاكفاً على المطالعة والتأليف، وأسس في سراي مير قريباً من قريته مدرسة دينية سماها مدرسة الإصلاح من أكبر مقاصدها تحسين طريقة تعليم العربية والاختصاص في علوم القرآن، وانتخب رئيساً للجنة دار المصنفين الإدارية.

وهو من كبار العلماء، له خبرة تامة بالعلوم الأدبية، وقدرة كاملة في الإنشاء والترسل، وتودد إلى معارفه وأصحابه مع جودة فهم، ووفور ذكاء، وزهد وعفة، وشهامة نفس وانجماع، لا سيما عن بني الدنيا وعدم اشتغال بما لا يعنيه، راسخ في العلوم العربية والبلاغة، متعمق فيها، متضلع من أشعار الجاهليين، وأساليب بيانهم، واسع الاطلاع على الصحف السابقة، حسن النظر في كتب اليهود والنصارى، عاكف على التدبر في القرآن، والغوص في معانيه وأساليبه.. الخ

من مؤلفاته: ديوان الشعر الفارسي، ومنظومة في اللسان الدرى لأمثال سليمان، ومنظومة بالأردو في الإعراب سماها تحفة الإعراب، ورسالتان في النحو والصرف، ورسائل بالعربية في تفسير القرآن، منها الإمعان في أقسام القرآن، والرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، وبعض أجزاء من تفسيره المسمى نظام الفرقان وتأويل القرآن بالقرآن منها تفسير سورة التحريم، والعصر، والذاريات، والشمس، والقيامة، والتين، والكافرون، والذهب، وجمهرة البلاغة، وديوان شعر عربي، ومنها ما لم يطبع إلى الآن.

مات في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وألف في مدينة متهرا، ودفن بها.

ثالثاً: تأطير مباحث الكتاب ومحاوره الأساسية

تضمن كتاب مفردات القرآن مقدمة منهجية⁽¹⁾، أفرد فيها عرضاً مجملًا للبنية الصرفية للأصول اللسانية، وبيان كيفية وقوع الوهم في فهم الكلمات - من خلال الاشتراك في الاستعمال - وشهرة التداول لنظائرها، وموقع غريب الألفاظ من ساحة الأصول اللسانية؛ وأهمية الوقوف على المفردة والإحاطة بلسان قبائل العرب لتحرير أوفق وجه ومعنى محصل للكلمة القرآنية.

وهاك أخي القارئ تأطيراً مختصراً لمقدمة هذا السفر، المشتمل على تقسيمها إلى ثلاثة أقسام، في مقابل ثلاث مقدمات أساسية، بعد أن أبان باعث إنشاء مصنفه وهو تخصيص الإحالة إليه في تفسيره «نظام القرآن» جملة من الكلمات التي تقتضي بياناً وإيضاحاً، درءاً لتكرار بحثها، فخصص دراستها في هذا المصنف.

■ فأما المقدمة الأولى: في مقصد الكتاب وحاجتنا إليه، إذ ذكر أن عمدة فهم الكلام هو المعرفة بالألفاظ المفردة، لأن الخلل في فهم الجملة آت من خلل فهم الجزء وهو المفردة المراد بياؤها، «وإنما يسلم المرء عن الخطأ إذا سد جميع أبوابه؛ فمن لم يتبين معنى الألفاظ المفردة من القرآن أغلق عليه باب التدبر وأشكل عليه فهم الجملة، وخفي عنه نظم الآيات والسورة⁽²⁾».

■ وأما المقدمة الثانية: ففي الأصول اللسانية؛

فأولها المشكلة على غير العرب أو العارف بلغتهم، والمشكلة نوعان:
الأول: ما لم يتبين هم معناه فأخطؤوا أصل الأمر.

(1) الفراهي، عبد الحميد: مفردات القرآن: ص 60 و ص 95 فما فوق.

(2) الفراهي: مرجع سابق: ص 95.

والثاني: ما لم يتبين لهم الأمور المتعلقة به من الأحوال الصحيحة فصارت الكلمة غير دالة على ما أريد منها.

ثم أمر المشتركة بين معنيين أو أكثر. ولا يهتدي إلى المعنى المراد في موضع خاص إلا بسياق الكلام أو موقعه واختياره ما كان أحسن تأويلاً.

ثم المرادفة لغيرها وهي قسمان: المطابقة لمرادفه من جميع الوجوه، وهذا قليل جداً. والثاني ما يوافقه من بعض الوجوه، وهذا كثير جداً. وفيه معظم الوهم، وكرباً ظن اتحادهما، وكثيراً ما يكون بينهما فرق لطيف لا يفيطن إليه غير الممارس باللسان، فيلتبس عليه بعض معاني الكلام.

وقد نبه المصنف القارئ اللبيب على أنفع شيء في فهم الكلمات المترادفة، ألا وهو معرفة تفسير الصحابة والتابعين، فإنهم كثيراً ما فسروا الكلمة بمرادفها حسب ما أريد في موضعها، وأشار إلى الخطأ الذي وقع فيه المتأخرون وهو توهم الترادف من جميع الوجوه فأخطأوا صحيح معنى الكلمة⁽¹⁾.

وآخر أنواع الكلمات، الكلمة الجامعة⁽²⁾: أي الجامعة المعاني، وصورتها الكلمة المشتركة التي لم يذهل عن الجامع بين معانيها. والفرق بينهما أن المشترك إنما يراد به أحد الوجوه نصاً ولجهة نظم الكلام، والباقي إشارة.

وذكر المصنف أن الكلمة الجامعة أيضاً كثيراً ما تكون عرضة للوهم، إذ يفسرها السلف بمرادف لها ببعض الوجوه فيظن أنها متطابقان تماماً. ولكون القرآن حافلاً بالألفاظ الجامعة وتنزيلها على وجوهها يحتاج إلى تدقيق النظر في موقعها وسياق الكلام، اعتنى المؤلف بها اعتناءً خاصاً. وفي كتابه مفردات القرآن ناذج هائلة من الكلمات الجامعة سأمثل لها لاحقاً.

(1) الفراهي، مرجع سابق: ص 104.

(2) الفراهي: مرجع سابق: ص 105 و106.

■ وأما المقدمة الثالثة ففي وجوه الاستدلال على نفي الغريب في القرآن وكونه خالياً منه⁽¹⁾.

وقد قرّر ذلك بالتحرير الواسع، إذ عرّض جملاً من الشواهد على ردّ وجود الغرابة في القرآن، بل ونكّر ذلك حتّى عند الصحابة رضي الله عنهم لأنّ القرآن نزل بأسلوب خطابهم وليس فيه ملغز، بل دلّت الآيات القرآنيّة على كونه عربياً مبيناً، وإنّما دعوى الغرابة لمن كان من أهل العجمة أو غير العالم بلسان العرب؛ قال الفراهي «قد أفصح القرآن بكونه عربياً مبيناً وقد وجدناه كذلك فإنه من مارس لغة العرب ونظر في أشعارهم وخطبهم ومحاوراتهم وجد القرآن أسهلها كلاماً وأقومها نظماً وأبينها مقالةً وأوضحها دلالةً، ... فأما التسمية بالغريب فبالنسبة إلى العجم ومن قلّ علمه بالعربية»⁽²⁾.

هذا، وإنّ محاور كتاب مفردات القرآن تُعدّ من أنفس المسائل العلميّة في الدراسات القرآنيّة الحديثة الآتية بالتجديد، والتأصيل والتحرير، ويكفي إحالة الفراهي على الكتاب نفسه لمن طلب التوسيع حالة قراءة كتابه «نظام القرآن»، وقد أحصيت عدّة الألفاظ المُفسّرة فيه فوجدتها تربو على بضع وثمانين مفردةً مع المُضَاف من المُحقّق الدكتور أجمل الإصلاحي تلميذ المُعلّم الفراهي، إذ طفق ينقل من المسوّدة ومن كتب أخرى كتب الفراهي على هامشها شيئاً من ذلك فثبّته الدكتور محمد أجمل مشكوراً ومأجوراً إن شاء الله، وسبب ذلك تكملة ما عسى ان يكون مراد المؤلّف من إلحاق المفردات الواردة على هامش كتبه الأخرى مما كان يقرأ ويدرس ويتعقّب.

وامتاز عرّضه الفنّي وطريقته في التناول بتحديد الكلمة القرآنيّة وبيان إطلاقاتها عند العرب وسوق الشواهد الشعريّة على ذلك والنظر في الاستدلال على صحّة المآخذ بالقرآن واستعماله للمفردة في نظائرها من مواضع الآي في السور القرآنيّة، مع محاولة

(1) الفراهي: مرجع سابق: ص 108

(2) الفراهي: مرجع سابق ص 109.

تعزير ما ورد عن العرب ببيانات من لسان العبرية والسريانية لإثبات المواطأة في الاستعمال.

ومن معضلات ما انفرد بتحريره، ونقد الغير في دراسته وتوجيهه، ما اشتمل الكتاب على طائفة من المسائل العلمية التي يكثر دورائها في التفسير، فحاول تأصيل درسها التفسيري، كالتي أشار إلى الحروف المقطعة أوائل السور في مبتدأ كتابه، وهأنا ذا ناقل رأي فيها على طريق الإيجاز ثم أتبعه بمنهج التأصيل النقدي في دراسة المفردات، برسم قواعد لغوية مرتبة.

• الحروف المقطعة أوائل السور:

ذكر المؤلف أن الحروف المقطعة أسماء للسور القرآنية⁽¹⁾، وهذا الذي ذهب إليه حكاة غير واحد من العلماء بل ونُسب إلى الجمهور⁽²⁾، غير أن ما أضافه في كتابه هذا هو العدول⁽³⁾ عن وجه التسمية لعدم الاحتياج إليه كما لا يقتقر إلى وجه تسمية السماء والأرض والماء، ومع ذلك فقد نوى نقل كلام أهل العلم في هذا الأمر، واختلافهم فيه ولم يتم له ذلك. ولما برّر صنيعهم في تتبع وجه التسمية لشأن منزلة الحروف المقطعة في التفسير، اجتهد في إبراز ذلك، وأبان أن مردّها إلى نشوء حركات الأصوات من العواطف الآتية على الفؤاد، فتورد هذه الأصوات التي هي مسميات في الاستعمال القديم عند العرب أنفسهم، كالتي استعملوا المعنى الحزن حرف (آه) دلالة، هذا الذي انتهى إليه في كتابه المفردات؛ ومن هذا القبيل أطبق المفسرون على إفادة الحروف

(1) الفراهي، مفردات القرآن: 117.

(2) ابن أبي رَمَين: محمد بن عبد الله. تفسير القرآن العزيز. تح: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز. دار الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة، ط1، 2002 م. ص: 1/120. القاسمي، محمد جمال الدين: محاسن التأويل. تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، 1418 هـ. 1/242.

(3) الفراهي، المرجع نفسه: ص 117.

المقطّعة معاني في نفسها معلومة، اختصرت بطريق الرمز والإشارة لمألوف استعملها وعدم الجهالة بها، كمنقولهم قول الوليد بن المغيرة⁽¹⁾. قلنا لها فني فقالت قاف. أي قالت: وقفت. وقول زهير بن أبي سلمى⁽²⁾:

بالخير خيرات وإن شراً ف... ولا أريد الشر إلا أن تا.

وفُسر: وإن شراً فشر، و: إلا أن تشاء. قال ابن عطية: «الشواهد في هذا كثيرة، فليس كونها في القرآن مما تنكره العرب في لغتها، فينبغي إذا كان من معهود كلام العرب أن يطلب تأويله ويلتمس وجهه.⁽³⁾» الخ

وأفاد مُحقق الكتاب الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، بفوائد عزيزة من كتاب تفسير سورة البقرة للمؤلف حيث ذكر⁽⁴⁾ كلاماً دقيقاً يفرق عما رسمه في المفردات ولعله انتهى إليه في أواخر عمره إذ لم يكتب له أن يحققه في مفرداته فأثر التحرير في تفسيره والله تعالى أعلم؛ ولولا خشية الإطالة بما ثبت في التفسير والخروج عن مقصود هذا المقال المختصر لنقلت مذهب المؤلف الأخير في الحروف المقطّعة من حيث وجه التسمية، ليعلم مضافه إلى الجهود في الدراسات القرآنية الحديثة، ولعلّ الدهر يسعه ما لا يسع هذا المقال من تناول جهود الفراهي في تجديد الدراسات القرآنية الحديثة فيخصص مستقبلاً بإذن الله تحرير هذا التجديد وتقديره في كتاب مستقل، والله الموفق.

(1) ينظر ترجمته في: البلاذري، أحمد بن يحيى. أنساب الأشراف. تح: سهيل زكار ورياض الزركلي.

دار الفكر - بيروت: ط1، 1996 م. [1/133].

(2) ينظر ترجمته في: الشعر والشعراء: 1/137-141.

(3) ابن عطية عبد الله بن غالب: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تح: عبد السلام عبد

الشافعي محمد دار الكتب العلمية - بيروت. ط1، 1422 هـ. [1/83].

(4) الإصلاحي، محمد أجمل أيوب: هامش مفردات القرآن: ص 117-120.

جُمْلُ قَوَاعِدِ الْكِتَابِ اللَّغَوِيَّةِ وَتَمَازُجِهَا مِنْ تَفْسِيرِ الْمُفْرَدَاتِ

(1) قاعدة: اتباع معهود لسان العرب والشائع من الاستعمال في القرآن

وهذه القاعدة أصل مأخذ الإمام الفراهي في كل كتبه، بل عَصَّ عليها بإحكام غير مُخِلٍّ بِمُقْتَضَاهُ مِمَّا كَانَ زَمَنُ نُزُولِ الْقُرْآنِ فِي الْعَهْدِ النَّبَوِيِّ، لِأَنَّ آيَةَ الْاِعْتِدَادِ بَفَهْمِ الْخُطَابِ مِنْ نِصُوصِ الْمَحْيِ إِنَّمَا مَرَجَعُهَا إِلَى كَلَامِ الْعَرَبِ أَنْفُسُهُمْ خَاصَّةً الْمَخْضَرِّينَ مِنْهُمْ، أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْهُمْ كَيْفَ أُعْجِبُوا بِخُطَابِ الْقُرْآنِ وَأُسْلُوبِهِ وَلَمْ يَسْتَغْرِبُوهُ، بَلْ شَدَّهُمْ إِلَيْهِ إِعْجَازُهُ وَقُوَّةُ نَظْمِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذَلِكَ أُوتِيَ فَهْمُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ مِنْ قِبَلِهِمْ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمُ الصَّحْبُ الْكَرَامُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَلَا جَرَمَ أَنْ يُفَرِّعَ عَلَى هَذِهِ الْقَاعِدَةِ قَاعِدَةٌ أُخْرَى مَرْسُومَةٌ فِي غَرِيبِ الْقُرْآنِ خَاصَّةً، وَهِيَ مَعْرِفَةُ عُرْفِ الصَّحَابَةِ فِي تَأْوِيلِهِمْ وَتَفْسِيرِهِمْ حَتَّى يَقِفَ الْقَارِئُ عَلَى بَيِّنَاتٍ مِنَ الْفَهْمِ السَّلِيمِ لِمُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ خُصُوصاً وَلِلتَّرَاكيبِ وَالنَّظْمِ عُمُوماً.

ومن تماذج هذه القاعدة الكُلِّيَّةِ فِي مُفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ لِلْفَرَاهِي، مُفْرَدَةُ «آلاء» فِي غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ مِنَ الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، فَإِنَّهُ قَرَّرَ أَنَّ الشَّاعِرَ مِنْ مَعْنَاهَا عِنْدَ اللَّغَوِيِّينَ وَالْمُفَسِّرِينَ هُوَ النَّعَمُ، وَنَقَدَهُ بِالْمَعْهُودِ مِنْ شَعْرِ الْعَرَبِ وَمَأْلُوفِ الْاِسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِيِّ، قَالَ الْفَرَاهِي «وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ وَأَشْعَارَ الْعَرَبِ يَأْبَاهُ⁽¹⁾»؛ وَعَزَّرَ تَوْجِيهَهُ بِشَوَاهِدَ مِنْهَا: - وَرُودُهَا فِي الْقُرْآنِ بَعْدَ حِكَايَةِ الْعَذَابِ وَالسِّيَاقِ يَقْتَضِي تَرْكَ الْكَلَامِ عَنِ النَّعَمِ، وَوُجَّهَ إِلَى الْفِعَالِ الْعَجَبِيَّةِ الَّتِي اخْتَصَّتْ بِهَا الْقُدْرَةُ الْإِلَهِيَّةُ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿فَإِنِّي إِلَٰهٌ رَبُّكَ نَتَمَارَى﴾ (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ النَّذْرِ الْأَوَّلِ ﴿٥٦﴾ [النجم: 55، 56]. وَقَوْلُهُ ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيرٍ آثَرٍ ﴿٥٤﴾ فَإِنِّي إِلَٰهٌ رَبُّكُمْ فَكُذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ [الرحمن: 43 - 45]. -

(1) الفراهي، مرجع سابق: ص 125.

ومنها، قولُ طَرْفَةَ⁽¹⁾: كَامِلٌ يَحْمِلُ آلَاءَ الْفَتَى نَبِيَّ سَيِّدِ سَادَاتِ خِصَمٍ⁽²⁾.
ورثي المَهْلَهُلُ⁽³⁾ أخاهُ كُلِّيًّا:

الْحَزْمُ وَالْعَزْمُ كَانَا مِنْ طِبَائِعِهِ مَا كُلُّ آلَائِهِ يَا قَوْمُ أَحْصِيهَا.⁽⁴⁾

وقال ربيعة بن مقروم⁽⁵⁾ الضَّبِّي: وَلَوْلَا فَوَارِسُنَا مَا دَعَتْ بِذَاتِ السَّلِيمِ تَمِيمٌ تَمِيمًا
وَمَا إِنْ لَأُوثِبَهَا أَنْ أَعْدَّ مَآثِرَ قَوْمِي وَلَا أَنْ أُلْوَمَا
وَلَكِنْ أُذَكِّرُ آلَاءَنَا حَدِيثًا وَمَا كَانَ مِنْ قَدِيمٍ⁽⁶⁾.

وَأَوْضَحُ مِمَّا سَبَقَ قَوْلُ فَضَالَةَ الْعَدَوَائِي:⁽⁷⁾

وَفِي الْفَقْرِ ذُلٌّ لِلرَّقَابِ وَقَلَمًا رَأَيْتُ فَقِيرًا غَيْرَ نَكْسٍ مُدَمَّمٍ
يَلَامُ وَإِنْ كَانَ الصَّوَابُ بِكَفِّهِ وَتُحْمَدُ آلَاءُ الْبَخِيلِ الْمُدْرَهَمِ⁽⁸⁾.

(1) ينظر ترجمته في: ابن سلام، محمد الجمحي، طبقات فحول الشعراء: 1/ 137. الأمدي، أبو

القاسم الحسن بن بشر، لمؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء: ص 189.

(2) طرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد: ص 74.

(3) ينظر ترجمته في: ابن سلام، محمد الجمحي، المرجع نفسه: 1/ 39-40.

(4) ابن عبد ربه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد: العقد الفريد: 6/ 73.

(5) ينظر ترجمته في: ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء: 1/ 308. البغدادي:

عبد القادر بن عمر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: 8/ 438-439.

(6) ابن سالم الضبي، المفضل بن محمد: المفضليات: ص 184.

(7) ينظر ترجمته في: العسقلاني، أحمد بن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة: 5/ 296.

(8) أبو الحسن البصري، علي بن أبي الفرج: الحماسة البصري: 2/ 83.

عَقَّبَ الفراهي هنا بقوله: «أي يمدون صفات البخل وفعله؛ وهذا البيت أوضح دلالة مما ذكرنا قبله على معنى الآلاء»⁽¹⁾. وفي هذه الشواهد غنية عما تركنا من الاستئناس به استدلالاً من الكتاب عما ورد من غيرها في الدواوين.

وقد ردَّ الفراهي الوهم الوارد في مُصَنَّفَاتِ اللغة والتفسير إلى استصحاب أولي الفن آية الرحمة المصوغة بالنعم فأخذوا بالإشتغال والعموم -وحق المفردة معرفة الفروق- بالإضافة إلى ما ورد من الرواية عن ابن عباس في حمل الآلاء على النعم، ووجه ما أخذ ابن عباس بأنه أراد الجواب عن سؤال مخصوص فأخرج من قوله عن سياقه. ومن نظائر مفردات هذه القاعدة، فعل «تنازع» الوارد في سورة الكهف من الآية (21)، ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَئِبُهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ۖ﴾⁽²⁾، وإليها أشار الفراهي بقوله «قد تبدل معناه- أي الفعل تنازع-».

وفي الصحيح التنازع هو التناؤل والجذب عموماً ويُستعمل للكأس والحديث⁽²⁾، والحديث⁽²⁾، يعني به تغيير معنى التنازع وتأويله إلى الخصومة في الاستعمال الآن بل وللخلاف أيضاً⁽³⁾، بل حكى الزمخشري تأويلاً للكلمة حاد به عن السياق، ففسر الآية بإرادة السر حالة التنازع ورده صاحب البحر المحيط معللاً إياه بأنه لو حصل الأمر في السر لما أطلق عليه لفظ التنازع، فعلمنا بهذا التقرير أن التنازع غير مقيد بالسر أو النجوى، وإنما هي حالة قد تحصل ولا يجيء التنازع وارداً فيها، ولذلك استدلل

(1) الفراهي، مرجع سابق: ص 132.

(2) الفراهي، مرجع سابق: ص 160.

(3) يُنظر تقييدات وتحقيقات المحقق على كتاب مفردات القرآن: الفراهي: ص 160، هامش

الفراهي بالآيات الأخرى، منها قوله تعالى ﴿فَنَزَعُوا أَمْرَهُم بِئِنَّهُمْ وَأَسْرُوا النِّجْوَى﴾ [طه: 62]؛ فإن اعترض عليه بأن التنازع اشتهر بالتخاصم والاستعمال كقوله تعالى

﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]، صَحَّحَ بقيد التعدّي بحرف «في» وهو المعتمد في الاستعمالين أي أسلوب التّنزيل ولسان العرب، أو لم تر إلى سياقه في الآية فإنه تعدّى بحرف الحذف!، وقال الألويسي «وأصل التنازع التجاذب ويُعبرُ به عن التخاصم وهو باعتبار أصل معناه يتعدّى بنفسه، وباعتبار التخاصم يتعدّى بفي كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ فِي شَيْءٍ فَرُدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ ففرّق بين أصل معناه في الوضع والشُّبوح والشهرة وبين محامل الاستعمال وسياقاته، وكلّ مأخذه لسان العرب، فلا جرم أن الفراهي أصاب موافقة الاستدلال لصحة المدلول.

ولقد سبق القول بحكاية عرف الصحابة في تعدّد مقالاتهم في الآية الواحدة وكذا إطلاقاتهم، وذلك من اختلاف العبارات الواردة على المال الواحد فلا يعدُّ من اختلاف الاعتبار ولا التناقض أو التضاد، وعلاقة هذا التقرير بالقاعدة المرسومة - وهي التفسير على الشائع في الاستعمال - هي استكمال الرؤية الشاملة في تفسير المفردات مما هو من قبيل المترادف مقاربة أو تشابهاً أو تمثيلاً فيعتبرُ به لأن مأخذه العرب الأوّلون ويُتقبّل في التفسير حملاً على ما عساه أن يكون ثراءً في معنى التشابه اللفظي والنظائري من الكلمات، وبه تُعرف مقاصدُهم وصنيعُهم في الخطاب ووجه تقديمهم على منقول اللغويين.

ومن مظنة أمثلة هذا التفرّيع، ما قد ضربنا قبل مثل قول ابن عباس في تأويل كلمة «آلاء» بالنعم فإنه ثبت على بعض أفراد اللفظ الجامع ولم يقصّر المعنى عليها، وهذا النوع في تفسير السلف كثيرٌ وقل من تأصّل بهذا التقرير في منقول كتب الغريب والتفسير، فإذا علمت أخي القارئ أصل هذا الحكم فانظر في التشابه من طريقة التفسير على هذا النمط وقس عليه ينجل لك المأخذ والله الموفق.

ويُضافُ إلى مثالنا هذا، تأويل ابن عباس - فيما رواه أبو جعفر الطبري عنه - قوله تعالى ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيَذْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ (٤١) [العلم: 42] فإنه قال «هي أوّل ساعة تكون في يوم القيامة⁽¹⁾» وقوله «كان أهل الجاهلية يقولون: شمّرت الحربُ عن ساقٍ يعني إقبال الآخرة وذهاب الدنيا⁽²⁾»، وهذا مُشكِـل الظاهر فإن الفراهي، ضَعَف القول واختار الشائع عن العرب في استعمال هذا التركيب، إذ المشهور الذي لا يُعدّل عنه هو استعمال هذا الأسلوب في وقت الشدة والتشيمير إذا راع الرجل أو المرأة الخطب والأمر الفظيع والمعاناة شمّرت عن ساقه، فاستُعير الساق في موضع الشدة⁽³⁾، ومنه قول الشاعر: كشفت لهم عن ساقها... وبدا من الشر الصراح⁽⁴⁾. قال حاتم:

أخو الحرب إن عصّت به الحرب عصّها
وإن شمّرت عن ساقها الحرب شمّرا
وقال الراجز:

عجبت من نفسي ومن إشفافها
ومن طرادي الخيل عن أرزاقها
في سنة قد كشفت عن ساقها
حمراء تيري اللحم عن عراقها⁽⁵⁾.
وقال أبو عبيدة: هذه كلمة تُستعمل في الشدة، يُقال: كشفت عن ساقه إذا تشمّر. قال: ومن هذا تقول العرب لسنة الجذب: كشفت ساقها، ونكّر ساق للدلالة على أنه أمر مُبهم في الشدة، خارج عن المألوف، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى

(1) الطبري، محمد جرير: جامع البيان في تأويل آي القرآن: 23 / 555.

(2) الطبري، المرجع نفسه: 23 / 555.

(3) القيسي، مكي بن أبي طالب: النهاية إلى بلوغ الهداية: 2 / 1522.

(4) الغزنوي: محمد بن أبي الحسن: باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن: 3 / 1536.

(5) أبو بكر الأنباري، محمد بن القاسم: الزاهر في معاني كلمات الناس: 2 / 371. الأندلسي، أبو

حيان، محمد بن يوسف: البحر المحيط في التفسير: 10 / 247.

شَيْءٌ نُكْرٍ ﴿٦﴾ [القمر: 6]، فَكَأَنَّهُ قِيلَ: يَوْمَ يَقَعُ أَمْرٌ فَظِيعٌ هَائِلٌ⁽¹⁾، وعلى هذا التأويل مشى الفراهي وأمضاه وقواه بنظائر من الاستعمال القرآني لوصف هذه الحالة كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَاثِ سِرَّاءَ كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: 43] وقوله ﴿مُهْطِعِينَ إِلَىٰ الدَّاعِ يَقُولُ الْكَاذِبُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: 8]... الخ؛ فههنا قولان أحدهما جارٍ على الأصل والوضع في لسان العرب وهو مذهب الفراهي ومجهور المفسرين وهي الرواية المشهورة عن ابن عباس⁽²⁾، والآخر رواية عن ابن عباس في حمل اللفظ على المعنى الذي يصير إليه ذلك اليوم وهو المأل.

ولحل هذا الإشكال ودفعه، وجب تتبع إطلاق الصحابة في خطابهم لحمل كلامهم على مقتضاه في عرفهم، إذ الوضع والاستعمال وصفان بحسب الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، ومثالنا من هذا الضرب؛ وذلك أنه إن حكّمنا القول الأوّل أخذنا بالظاهر وأصل الكلام، وإن أخذنا بالآخر حملناه على عرف الاستعمال، وأريد به المأل وهو في تأويل الصحابة والتابعين كثير، فقد فسروا اللفظ والتراكيب بتأدية المعنى لا الحد المطابق لمحدوده، ولو كان قريباً منه، ولهذا ورد عن مجاهد قوله «كُلُّ كَرْبٍ أَوْ شِدَّةٌ فَهُوَ سَاقٌ وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﴿وَالْقَعَىٰ أَلَسَاقُ﴾ [القيامة: 29] أَي: كَرْبُ الدُّنْيَا بِكَرْبِ الْآخِرَةِ⁽³⁾»، فهذا تفسير على المعنى لا على التعريف بذات اللفظ، ومثله شائع في طريقة السلف كالذي مضى من قبل؛ ولو أنه كلما وقع القول على خلاف الظاهر فهم منه التضاد والتعارض لأدى الأمر إلى فوضى الاستعمال وتهمّة القول في التفسير

(1) الأندلسي أبو حيان: المرجع السابق: 10/ 247-248.

(2) وقد سُئِلَ عن ذلك، فقال: إِذَا خَفِيَ عَلَيْكُمْ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَابْتَغُوهُ فِي الشَّعْرِ، فَإِنَّهُ دِيْوَانُ الْعَرَبِ أَمَّا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

صيراً عنقاً إنه شر باق ... قد سن لي قومك ضرب الأعناق **** وقامت الحرب بنا على ساق
يُنظر: ابن أبي حاتم، التفسير المُسنَد:

(3) ابن أبي زمنين، محمد بن عبد الله: تفسير القرآن العزيز: 5/ 22.

بغير علم، وقد علمنا تورع الصحب الكرام عن ذلك؛ فإذا تقرر هذا فلا إشكال إذا في الجمع بين القولين، وهذا الذي ارتضاه الفراهي فإنه قال «ووهم الرواة فيما رَوَوْا عن ابن عباس أنه آخر يوم من الدنيا وأول يوم من أيام الآخرة، فإنه لو صحَّ فهو بيان الواقعة وليس بتفسير»، والشاهد بين واضح عبر عن تأويل ابن عباس بيان الواقعة وهو ما حرَّزته من قبل بتسميته المالك، وحكم عليه بأنه ليس بتفسير، أي للفظ إذ الساق هي الساق وليس الحرب، ولم يزعم أحد أنها من أسماء الحرب، وإنما الدلالة بمجموع اللفظ لا بأجزاء الكلمة، فصحَّ بهذا تأويل ابن عباس للمعنى لا للفظ.

ومن المناسب ذكر قول ثالث في الآية، رواه أصحاب المصادر الأصلية من مصنفات التفسير والسنة كالطبري وابن أبي حاتم والبخاري وابن منده وأبي الحسن الدارقطني، وهو الكشف عن ساق الإله سبحانه، وهي الرواية عن أبي سعيد الخدري وابن مسعود - رضي الله عنهما -، بحيث وردت المرويات بالتصريح؛ مع الاعتداد بالخلاف الحاصل في تأويل الآية، ومن حكى الخلاف الطبري⁽¹⁾ والحافظ أبو عبد الله بن منده، ومنشأ الخلاف سعة الدلالة وتعدد المدليل، ولم يؤد السباق إلى رفع أحدها لعدم الوقوع في التضاد، وذلك لأن اللفظ سيق بأسلوب التنكير أي «يكشف عن ساق» فسوغ احتمال المعاني وتعددتها، خاصة وأن الشواهد من اتحاد الدليل والمدلول واردة وقوي توجيهها، ويلزم على هذا تقرير حكم التنوع في الاختلاف لا التعارض ولا إيماءه.

نعم، اختلف كثير من المفسرين في إلحاق صفة الساق بالإله جل وعز، لمراعاة مخالفة الحوادث، فقد حكى البيهقي⁽²⁾ إجراء التأويل السليم حذراً من التشبيه وتسليماً للتنزيه، غير أن ثبوت النقل عن الصحابة أنفسهم مع التسليم التام للنص المنقول، وعدم الالتفات إلى حقيقة ذلك وكيفية وترك الخوض فيه، يوجب الاستمساك باعتقاده، وترك تأويله على طريقة المتكلمين، لأن فعل هذه الصفة في حكم إرادة الله

(1) يُنظر: الطبري: مرجع سابق.

(2) البيهقي أبو بكر، أحمد بن الحسين: الأسماء والصفات.

تعالى إذ لا يُسأل عما يفعل، مع تحقق نفي التشبيه. وأما شبهة التماثل فهي بمنأى عن الأسلوب القرآني إذ لم يُفد أنه موهم للتشبيه بل أقرَّ عظمة تليق بنفس الإله سبحانه، ولم نُؤمِّر بتتبع ذلك حقيقةً وكيفيةً، ولو صحَّ هذا الإيham لأشكَل على الصحابة أنفسهم، ومن محاسن ما أقرَّنا شيخنا محمد سالم ولد عدود رحمه الله تعالى قوله في مقدِّمة نظمه على مختصر خليل:

ما أوهم التشبيه في آيات وفي أحيات عن الثقات
هي صفات وُصف بها الرحمن وواجب بها الإيمان
ثم على ظاهرها تُبقيها ونحذر التأويل والتشبيها

وتلخص من هذا التوجيه، تعيين ثلاثة معانٍ في الآية ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيَذْعَبُونَ عَلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: 42]، وهي الكشف عن شدة الهول والأمر يوم القيامة، وهو اختيار الفراهي ورواية عن ابن عباس، والثاني إنهاء آخر يوم من أيام الدنيا لكشف أول يوم من الآخرة وهو قول ابن عباس، والثالث الكشف عن ساق الإله سبحانه وهو قول ابن مسعود وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري، وحمله المتكلمون على تأويل صفة النور، وحمله طائفة من أهل الحديث على ساق الله لا يدرى كيفيتها فتقبلت من غير خوض فيها ولا طلب لحقيقتها، والقلب إليه أميل وبه أخذ.

والمقصود، هو إمكان حمل المعنى على الثلاثة مما تقدّم من تأصيلها، من غير إلزام باختيار الفراهي في ترجيح المعنى الأصيل للصيغة الواردة عن العرب، مع اعتداده بالقول الآخر عن ابن عباس على افتراض صحته. والله تعالى أعلم.

1) قاعدة موافقة لغات غير العرب - كالعبرانية والسريانية والنبطية - للاستعمال العربي

وهذه قاعدة مُصرَّح بها، بل ثبتها في أول كتابه عند عرضه طريقة بحثه في معاني المفردات بإعمال المقابلة بين المستعمل عند العرب ووجوده كذلك في الأصول اللسانية غير العربية كالعبرانية، قال الفراهي: «إذا اشتبه المعنى فطريق التوضيح تتبع استعمال

لفظه كما فعلنا في لفظ «آلاء» و«العصر» والنظر في أصله، واستعماله في أخوات العربية كالعبرانية والسريانية⁽¹⁾.

1. الطوفان: ذكر في المصنف في مفرداته أن الطوفان يراد بمعنى الإعصار المستدير يصحبه المطر وفوران الماء. وهو المعنى نفسه عند الرومية، وزعم أن قدماء المصريين اتخذوا إلهاً للريح سموه بـ «الطائفون»، ثم إلى دلالة تاريخية وصفها القرآن المجيد وهي ما حصل لقوم نوح من تلاقي ماء السحاب وفوران البحر، يريد بذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾، وقد علق المحقق على في حاشيته على مفردات القرآن للمصنف بالإفادة من الفراهي نفسه في تفسير سورة الذاريات - عند تأويل آية قصة نوح (عليه السلام) - بالاستفادة من إطلاقات السنة أخرى غير العربية، واستأنس بها ورد في سفر التكوين ص 7 ف 11 «في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء» ثم قال وفي سورة هود ﴿وَهُي تَجْرِي فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: 42] - الآية وأتبعها بقوله ومن ركب البحر علم أن الأمواج كالأمواج لا تنشأ إلا بريح شديدة...⁽²⁾.

ومن شواهد لغة العرب في هذا التوافق في الاستعمال بين العرب وغيرهم قول الراعي يصف الناقة⁽³⁾: تُمسي إذا العيس أدر كنا نكائتها خرفاء يعتادها الطوفان والزؤد. 2. القربان⁽⁴⁾: وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى تعبدًا وتضرعًا وشكرًا، وأعظمه قربان النفس والأبكار، ومنه قربان سيدنا إبراهيم (عليه السلام) ابنه إسماعيل عليه السلام،

(1) الفراهي: مرجع سابق: 114.

(2) الفراهي، مرجع سابق: هامش المحقق - الدكتور أجمل أيوب الإصلاحي: رقم 2 / ص 219.

(3) أبو منصور الأزهري، محمد بن أحمد: تهذيب اللغة: 104 / 10.

(4) القربان مصدر قرب يقرب أي يتقربون إلى الله بإِرافة دِمَائِهِمْ فِي الْجِهَادِ. وَكَانَ قُرْبَانُ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ ذَبْحَ الْبَقَرِ، وَالْغَنَمِ، وَالْإِبِلِ. وَفِي الْحَدِيثِ: الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ. أَي أَنَّ الْأَتَقِيَاءَ مِنَ النَّاسِ يَتَقَرَّبُونَ بِهَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَي يَطْلُبُونَ الْقُرْبَ مِنْهُ بِهَا. وَفِي حَدِيثِ الْجُمُعَةِ: مَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ

1. قال الفراهي وفي التوراة تصريحٌ بذلك⁽¹⁾.

(1) كفر: بمعنى سَتَرَ كما هو معلوم في مشهور استعمال العرب⁽²⁾، ومن الموضوع المُشار إليها في التفسير قول الله تعالى: «إم! شاكراً وإمّا كفوراً»، وذكر الفراهي استِعمال غير العرب لهذه المادة اللغوية قديماً وروّدها كما في الإنكليزية بمعنى ستر وغطى⁽³⁾.

(2) المن: ذكر الفراهي أن هذه الكلمة مأخذاً عن أهل الكتاب، ثم عرفتها العرب وأنشد الأعشى: لو أُطعمُوا المنّ والسّلوى مكائهم ما أبصرَ النَّاسُ طُعماً فيهم نَجَعاً⁽⁴⁾. وأراد بذلك تأويل الآية ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى﴾ [البقرة: 57]، ثم أبقى الفراهي اللفظ على عُمومه من إرادة كل ما أمكن أن يُنعم الله تعالى على عباده، واستشهد بها يَدُلُّ على ذلك من نصوص التوراة اليهودية؛ وأمّا ما بلغنا من آثار التابعين فهو ممّا فهموه من مُسمّى المنّ العامّ الدّالة فاختلفوا في ماهيته، كقول السّديّ

=الأولى، فكأنّا قَرَبَ بَدَنَهُ أَي كَأَنَّا أَهْدَى ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا يُهْدَى الْقُرْبَانُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ..
..الخ. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب (1/ 665).

(1) الفراهي، مرجع سابق: ص 232.

(2) الفراهي، مرجع سابق: ص 306. وَوَرَدَ أَيْضاً: كَفَرَ بِاللَّهِ يَكْفُرُ كُفْراً وَكُفُوراً وَكُفْرَاناً. نَقِضُ الْإِيمَانَ. وَالْكُفْرُ: كُفْرُ النِّعْمَةِ، وَهُوَ نَقِضُ الشُّكْرِ. وَالْكُفْرُ: جُحُودُ النِّعْمَةِ، وَهُوَ ضِدُّ الشُّكْرِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: إِنَّا بِكُلِّ كَافِرٍ؛ أَي جَاذُونَ. وَكَفَرَ نِعْمَةً اللَّهُ يَكْفُرُهَا كُفُوراً وَكُفْرَاناً وَكَفَرَهَا: جَحَدَهَا وَسَتَرَهَا. وَرَجُلٌ كَافِرٌ: جَاذٌ لَأَنْعَمَ اللَّهُ، مُشْتَقٌّ مِنَ السَّتْرِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهُ مُعْطَى عَلَى قَلْبِهِ. قَالَ ابْنُ دُرَيْدٍ: كَأَنَّهُ فَاعِلٌ فِي مَعْنَى مَفْعُولٍ، وَالْجَمْعُ كُفَارٌ وَكُفْرَةٌ وَكُفْرٌ وَكُفْرَانٌ وَكُفْرَانٌ وَكُفْرَانٌ وَكُفْرَانٌ. الخ. اهـ. يُنظر: ابن منظور، مرجع سابق: لسان العرب (5/ 144).

(3) الفراهي، مرجع سابق: ص 306.

(4) ابن قتيبة الدينوري، عبد الله بن مسلم، أدب الكاتب: ص 374.

الكبير⁽¹⁾ «المن كان يسقط على شجر الزنجبيل⁽²⁾»، وقول ابن وهب فيه «خبر الرقاق مثل الذرة» وقول ابن زيد «عسل كان ينزل من السماء» والله أعلم.

3) وأما السلوى فلم يختلفوا في معناه لكونه مراداً في مادة الطيران غير أنهم نسبوه إلى التشبيه بالسهماني أي طائر يشبهه أنزل عليهم مأكلاً وطعاماً، والرواية عن ابن عباس بهذا وردت⁽³⁾، ومأخذها عن أهل الكتاب. والله أعلم.

قاعدة: تتبع موارد اللفظ لدى استعمال الصحابة رضي الله عنهم:

- وهي معنى قول الفراهي ومن أنفع شيء في هذا الباب معرفة تفسير الصحابة والتابعين فإنهم كثيراً ما فسروا الكلمة بمرادفها حسب ما أريد في موضع خاص:

- والأمثلة كثيرٌ ورودها وروايتها في مصنفات التفسير خاصة الأثرية منها، بحكم شهرتها وإسنادها الآثار عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، ومن أمثلة هذه القاعدة تفسير لفظ التوفي بالإماتة على ما ورد عن التابعين - بخلفهم فيه - كما نقله الطبري وغيره، وليس بمشكل لأن الترادف ههنا ليس بتام لإمكان الجمع بين اللفظين بتوجيه الإماتة مشبهةً بالذي أنهى تعلقه بالغير وتصرّفه فيه، فعومل معاملة من سلبت حياته؛ أفاده القاسمي في محاسن التأويل⁽⁴⁾. وهذا التوجيه هو عين ما أراده الفراهي لتصريحه بأن الوفاة أعم من الإماتة⁽⁵⁾.

(1) ينظر ترجمته في: التميمي البستي، ابن حبان: محمد بن حبان: مشاهير علماء الأمصار: ص 178.

المزي، يوسف بن عبد الرحمن: تهذيب الكمال في أسماء الرجال: 2/ 132. الذهبي محمد بن أحمد بن قايماز: سير أعلام النبلاء: 5/ 264.

(2) الطبري، مصدر سابق: 2/ 92. وكل ما ورد أعلاه من المرويات وارد في ثبت ابن جرير فيلنظر.

(3) ينظر: الطبري، مصدر سابق: 2/ 94.

(4) القاسمي، مرجع سابق: 2/ 324.

(5) الفراهي، مرجع سابق: ص 105.

- ومن الأمثلة أيضاً تفسيرُ القُومِ في آية ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقَلِمَا وَقَسَائِمَا وَفُومِمَا وَعَدَسِيمَا وَبَصَلِيمَا﴾ [البقرة: 61] بالثُوم، وهي قراءةُ ابن مسعود⁽¹⁾ كما أشار إليها الفراهيُّ في مفرداته⁽²⁾، وعلّق عليها الطبريُّ بحلول الإبدال وجوازه عند العرب بين الفاء والثاء لقُرب المخرَجين⁽³⁾ وهو كثير التداول والاستعمال.

- ومن منقول هذا التمثيل ما ورد عن ابن عباسٍ من تأويله ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢﴾ تمثيلاً بلفظ «هذا الكتاب»⁽⁴⁾، وقد روي عن طائفة من أصحابه المكيين؛ وهو اختيار الطبريِّ في إلحاق معنى «ذلك» بـ «هذا»، وقرّر أنه استعمالٌ لللفظ البعيد الغائب على إرادة القريب الحاضر، وأعلّله بأن ما تقضى أو انقضى في الذهن إخباراً به، فهو والحاضر واحدٌ أو كالحاضر، فعومل معاملته، وههنا سوءاً، وقرينته لفظ «ذلك»، وتعقّبه الفراهي بأن كلمة «هذا» تأتي للإشارة إلى ما تريه المخاطب مما هو بين يديه، بخلاف «ذلك» فإنها كلمةٌ مستعملةٌ لبيان المعهود الذهنيّ السّابق الذّكر مما علمه المخاطب، ومن الأوّل قوله تعالى ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ﴿٢﴾ [قريش: 3] وقوله ﴿إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُدْعَىٰ إِلَيْهِمْ لَدَيْنَ آتَابَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: 68] فاستعمل كلمة هذا. ومن الآخر قوله تعالى بعد ذكر قصة داود (عليه السلام) ﴿ذَلِكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: 253]... وقوله بعد ذكر الحدود: ﴿ذَلِكَ

(1) ينظر: الطبري، مصدر سابق: 2 / 126.

(2) ينظر: الفراهي، مرجع سابق: ص 370.

(3) الطبري، مصدر سابق: 2 / 126. قال الطبري: ... «فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحروف

المبدلة كقوهم: «وقعوا في عاثور شر: وعافور شر» وكقوهم «للأثافي، أثافي؛ وللمغافير، مغافير»

وما أشبه ذلك مما تقلب الثاء فاء والفاء ثاء، لتقارب مخرج الفاء من مخرج الثاء... الخ»

(4) الطبري، مصدر سابق: 1 / 222.

حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ ﴿١٣﴾ [النساء: 13] فاستعمل ما عبّر عنه النُّحاة بأسلوب البعيد⁽¹⁾ وهو لفظ «ذلك»، وتلك.

- وقد ضعّف الفراهي اعتمادَ شعرِ خُفافِ السُّلَمِيِّ رحمته الله في تبنيّ البدل بين «ذلك» و«هذا»، معللاً قُصُورَ المعنى عن التَّوجِيهِ المزعوم لما فيه من التَّكْلُفِ إذ لم يُردْ إلاّ بيان عظّمته ولا فائدة في التَّنْوِيهِ بها بقوله أنا هذا، قال الفراهي «وأما البيتُ فيقبح فيه لفظ «هذا»، فإنَّ الشاعر بعدما ذكر اسمه لعدوّه، قال له: إنني عدوك الذي سمعته وعلمته من قبل. فلو قال: إنني أنا هذا، لم يدل على ذلك المعنى، وأيضاً سقط، لما في «ذلك» دلالة على عظّمته، ولا فائدة في «أنا هذا»⁽²⁾ اهـ.

بيد أنّ ما ذهب إليه الطبريُّ أوسعُ مما نقله الفراهيُّ، فإنَّ الناظر في سياق كلام الطبريِّ في جامعهِ هو في معرض الأقوال الواردة في معنى تركيب كلمتي «ذلك الكتاب» لا في ترجيح القول بالاستعمال البديّ بين ذلك وهذا، بدليل اختياره القول الأوّل من سائر الأقوال، وهاك أخيّ القارئ سياق كلام الطبريِّ لتشهد توجيهِ الإشكال الوارد بين مذهب الطبريِّ وما انتهى إليه الفراهيُّ مما حكّيته عنه سابقاً.

قال الطبريُّ... «وقد وجّه معنى «ذلك» بعضُهم إلى نظير معنى بيتِ خُفافِ⁽³⁾ بن نَدْبَةَ السُّلَمِيِّ:

فإن تك خيلي قد أصيب صميمُها... فعمداً تيمّمت مالِكا

(1) ينظر: الزمخشري جار الله، محمود بن عمرو: المفضل في صنعة الإعراب: ص 181. ابن هشام،

عبد الله بن يوسف: أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك: 1/ 141.

(2) الفراهي: مرجع سابق: ص 354.

(3) ينظر ترجمته في: النميري القرطبي، يوسف بن عبد البر؛ الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

2/ 451. ابن الأثير، علي بن أبي الكرم: أسد الغابة في معرفة الصحابة: 2/ 178. الأمدي، أبو

القاسم الحسن بن بشر: مرجع سابق: ص 136.

.... أقول له والرَّمْحُ يَاطِرُ مَتْنَهُ... تَأَمَّلْ خُفَافاً إِنَّنِي أَنَا ذَالِكَا⁽¹⁾.

كَأَنَّهُ أَرَادَ تَأَمَّلْنِي أَنَا ذَلِكُ. فزعم أن «ذلك الكتاب» بمعنى «هذا» نظيره. أظهر خُفَافٌ من اسمه على وجه الخبر عن الغائب، وهو مخبر عن نفسه. فكذلك أظهر «ذلك» بمعنى الخبر عن الغائب، والمعنى فيه الإشارة إلى الحاضر المشاهد.

والقول الأول أولى بتأويل الكتاب، لما ذكرنا من العلل⁽²⁾ [اهـ].

فهذا الذي بين يديك -أخي القارئ- من منقول الطبري يُفصِّح عن اختياره القول الأول واعتماده، دون ما نقله استئناساً من الشعر في توجيه قيام لفظ «ذلك» محل «هذا» وتجويزه. ألم ترَ إلى تصريحه بأولوية القول الأول، والمُرَادُ به تفسير التركيب «ذلك الكتاب» بهذا الكتاب، وهو ما نقله بأسانيده عن عكرمة ومجاهد والسدي وابن عباس في الأخير بل وَزَعَمَ أَنَّهُ قَوْلُ عَامَةِ الْمَفْسِّرِينَ⁽³⁾؛ فالإشكال في قول الطبري بتأويل ذلك بهذا غير واردٍ، وغرابة تبنيّه توجيه تأويله بشعر خُفَافِ الصَّحَابِ السَّابِقِ الذِّكْرِ أيضاً دعوى لا مُقْتَضَى لها، ولا يُسَلِّمُ للفراهي ما ذهب إليه من كونه مذهباً للطبري.

وذلك، أن حقيقة مذهب الطبري ما نقله عن عامة المفسرين، خاصة مرويات مدرسة ابن عباس المكية، ولا يُضَرُّ اعتياد ذلك، لأننا قدّمنا أن كلام الصحابة والتابعين، ينبغي فحصه وفهمه على مراده في عرف إطلاقهم، وتوجيه ألفاظهم على

(1) ينظر البيت في: الفراء، معمر بن المثنى: مجاز القرآن: 1/ 28. قال الفراء «وقد تخاطب العرب الشاهد فتظهر له مخاطبة الغائب. اهـ وقد أورده الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب بإضافة بيتٍ توسّط البيتين المذكورين وهو: «وقفت له علوي وقد خان [1] صحبتي ... لأبني مجداً أو لأثار هالكا» ينظر: الاستيعاب: 2/ 451.

(2) الطبري: مصدر سابق: (1/ 227).

(3) الطبري: مصدر سابق: (1/ 225).

محامل الترادف المتقارب جمعاً لما عسى أن يكون من الاختلاف المأذون فيه، وهو من توارد العبارات على المعنى الواحد وجنس هذا الأمر من الصنيع في تأويلهم كثير. ولقد ضربنا من الأمثلة ما قد سبق، سيما هذا الأمر الذي نازع فيه الفراهي، لأن مراد السلف من التأويل به تقريب القصد والحمل على المراد أو التأويل بالمثل، وقد غفل الفراهي ههنا عن التنبيه إلى هذا القيد الأصيل في عرف السلف في تفسير الغريب والكلم، إلا ما حكى من صحة التأويل ووجوب التفرقة بين استعمال العرب لكلمتي هذا وذلك فقد أجاد.

وأما الدعوى، فإن الطبري ضعّف المأخذ وكفى به تقويةً للراجح مما اختاره، وعُدولاً عن المرجوح ممّا نقله من التوجيه، فكان الأخرى من الفراهي تحديداً مذهب الطبري من أدلته المنقولة من الآثار لا من منقوله الشعري، إذ لا يقوى الشعر على توجيه مأخذ الصحابة للتأويل وإنما يفصح بطريقتهم في فهم سياق الشعر؛ وعليه فإن تأويل «ذلك الكتاب» بهذا الكتاب، تأويل صحيح أسلوباً واستعمالاً وبياناً، ولا يردّ بقصور الشعر عن مواطأته. والله أعلم.

الخاتمة

إنَّه لَمَن القليل دركُهُ في الوقوف على غريب القرآن وتتبع تفسيره اللُّغويِّ وما اقتضاه من تحكيم قواعده، وجُنُوحُ طريقتنا في التعبير عن ما يُراعى ضبطه وإحكامه باتخاذ نموذج تطبيقيٍّ هادفٍ كدراسة العلامة الفراهيِّ في كتابه المفردات يُفصِّحُ عن التأهيل المنهجيِّ للتَّكوين المتكاملِ الرُّويَّة، الشَّامِلِ التَّصَوُّرِ ممَّا يأتي بتحرير الدَّرس اللُّغويِّ وتدقيق مباحثه، وهذا دأبنا فيما طلبنا عِلْمَه وصعَّبَ تناوُلَه، وعليه فإنَّ سلوك سبيل منهج الفراهي في فنِّ المفردات وغريب القرآن يُعدُّ لبنَةً أساسيةً في تجديد الدراسات المعجمية واللُّغوية لفن التفسير.

ومن نتاج القول في كليات التفسير لدى منهج الفراهيِّ، تقلُّبُ اللَّفْظِ وتثويره بعرضه على أصل استعماله ومألوف عهده في المنهاج القرآنيِّ، بل هذا أصل كليات منهجه وذروة سنامه.

ومن لوازم هذه الكلية في التفسير أيضاً تحكيمُ الشائع في لسان العرب ومقارنته بالعرف السائر لدى المفسرين من الصَّحابة لعلمهم التَّامُّ بمقتضى أسلوب عربيَّتهم وموارد خطابهم ومحاكاة لسان القرآن، وشهودهم التنزيل وأسبابه، وسؤالهم عمَّا أشكل من الكَلِم ومفرداته. والله أعلم.

كاتب المقال: الدكتور محمد مغربي، أستاذ محاضر أ بكلية العلوم الإسلامية- جامعة الجزائر. 1

قائمة المصادر والمراجع

- أدب الكاتب: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المحقق: محمد الدالي الناشر: مؤسسة الرسالة.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب. المحقق: علي محمد البجاوي. دار الجيل، بيروت الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992 م
- أسد الغابة في معرفة الصحابة. علي بن أبي الكرم، ابن الأثير: المحقق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود. دار الكتب العلمية. الطبعة: الأولى. 1415 هـ - 1994 م.
- الإصابة في تمييز الصحابة: أحمد بن حجر العسقلاني، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض. دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى - 1415 هـ.
- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر). عبد الحي بن عبد العلي: الحسني الطالبي. دار ابن حزم - بيروت، لبنان. الطبعة: الأولى، 1420 هـ، 1999 م.
- أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري، ..تح: سهيل زكار ورياض الزركلي. دار الفكر - بيروت: ط1، 1996 م.
- أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك. عبد الله بن يوسف، ابن هشام: المحقق: يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. ب تا.

- باهر البرهان في معانى مشكلات القرآن، محمد بن أبي الحسن الغزنوي: المحقق : سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي. جامعة أم القرى - مكة المكرمة حرسها الله تعالى 1419 هـ - 1998 م
- البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، محمد بن يوسف الأندلسي: المحقق: صديقي محمد جميل . دار الفكر - بيروت. الطبعة: 1420 هـ.
- الحماسة البصرية: أبو الحسن علي بن أبي الفرج البصري،: المحقق: مختار الدين أحمد. عالم الكتب - بيروت.
- تفسير القرآن العزيز: بن أبي زمنين، محمد بن عبد الله: المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز. الفاروق الحديثة - مصر/ القاهرة. الطبعة: الأولى، 1423 هـ - 2002 م.
- التفسيرُ المُسنَدُ: ابن أبي حاتم، المحقق: أسعد محمد الطيب. مكتبة نزار مصطفى الباز المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثالثة - 1419 هـ.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن المزني. المحقق: د. بشار عواد معروف. مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الأولى، 1400 - 1980 م.
- تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى. المحقق: محمد عوض مرعب. دار إحياء التراث العربى - بيروت. الطبعة: الأولى، 2001 م.
- خزائن الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي. المحقق: عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي، القاهرة. الطبعة: الرابعة، 1418 هـ - 1997 م.
- ديوان طرفة بن العبد: طرفة بن العبد، المحقق: مهدي محمد ناصر الدين. دار الكتب العلمية. الطبعة: الثالثة، 1423 هـ - 2002 م.

- الزاهر في معاني كلمات الناس. أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري: المحقق: د. حاتم صالح الضامن. مؤسسة الرسالة - بيروت. الطبعة: الأولى، 1412 هـ - 1992.
- سير أعلام النبلاء: محمد بن أحمد بن قايّاز الذهبي، المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. الطبعة: الثالثة، 1405 هـ / 1985 م.
- الشعر والشعراء: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الناشر: دار الحديث، القاهرة عام النشر: 1423 هـ.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي. المحقق: محمود محمد شاكر. الناشر: دار المدني - جدة. ب تا.
- العقد الفريد، أبو عمر أحمد بن محمد، بن عبد ربه الأندلسي: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الأولى، 1404 هـ.
- لسان العرب ابن منظور، دار صادر - بيروت. الطبعة: الثالثة - 1414 هـ.
- المؤلف والمختلف في أسماء الشعراء، أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدى: المحقق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو. الناشر: دار الجيل، بيروت. الطبعة: الأولى، 1411 هـ - 1991 م.
- مجاز القرآن. معمر بن المثنى، الفراء، المحقق: محمد فواد سزكين، الناشر: مكتبة الخانجي - القاهرة. الطبعة: 1381 هـ.
- محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي: المحقق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت. الطبعة: الأولى - 1418 هـ.

- مشاهير علماء الأمصار: محمد بن حبان التميمي البستي. المحقق: مرزوق على ابراهيم. دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة. الطبعة: الأولى 1411 هـ - 1991 م.
- مفردات القرآن، عبد الحميد الفراهي. تح: د محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب.
- المفصل في صنعة الإعراب. جار الله، محمود بن عمرو الزمخشري: المحقق: د. علي بو ملحم. مكتبة الهلال - بيروت. الطبعة: الأولى، 1993.
- المفضليات: المفضل بن محمد بن سالم الضبي، المحقق: حمد محمد شاکر وعبد السلام محمد هارون. الناشر: دار المعارف - القاهرة. الطبعة: السادسة. ب تا.
- الهداية إلى بلوغ النهاية: مكي بن أبي طالب القيسي: المحقق: مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ. د: الشاهد البوشيخي. الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م.